بقلم الدكتور حامد صادق قنيبي

النبات في عالمنا الفسيح لسان من ألسنة التقديس والتسبيح للخالق جل جلاله وهو من جملة بدائع القدرة الالهية في المخلوقات من حيث ايجاد الأشجار والثمار والحبوب ، والبقول ، والأزهار ، والتأمل في كيفية تكوينها ، وجميل صنعها ، مما يقوى في الإنسان عقيدة الإيمان برب السموات والأرض وجميع الكائنات . .

واذا كان عالم النبات صفحة في كتاب الله المنظور فاننا نشهد فيه صورة الحياة في حركتها وانتقالها، وفي مراحلها وأطوارها ، وفي جمالها المونق البديع الألوان والأشكال . قال تعالى: « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما ، ان في ذلك لذكرى لأولى الألباب » (١) . . وقال أيضا : « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ . . بل هم قوم يعدلون » (٢) . .

ها هو ذا القرآن يلفت البصائر والأبصار الى سرّ الحياة ومنشأ النبات وتعدده كما يحدثنا أن الزرع والنبات والشجر انما ينشأ نتيجة تفاعل الماء والتراب والبذور ، قال تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » (٣) .

فالله هو الذى خلق عالمنا كله فسواه تسوية تامة كاملة لا عوج فيها ولا أضطراب ولا نقص ولا زيادة بل كل شيء فيه في وضعه الصحيح يؤدى الغرض الذى من أجله خلق ، فهو الذى قدّر فهدى أى قدّر لكل حيّ ما يصلحه مدة بقائه وهداه اليه ، وعرّفه وجه الانتفاع بما فيه من منفعة له . « والذى أخرج

(١) سورة الزمر : ٢١ (٢) سورة النمل : ٦٠ (٣) الأعلى : ١ – ٥ .

المرعى » أى أنبت النبات جميعه . وما من نبت ينبت الاّ وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان ما ، ثم بعد ذلك أنبت النبات (فجعله غثاء أحوى) والغثاء هو الهشيم ، أو الهالك البالى ، والأحوى الذى يميل لونه الى لون السواد(١) .

والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى . . مثال على كمال الخلق والتسوية والهداية ، والغثاء الأحوى إنما هو الفناء والامـــاتة وازالة الحياة فكيف ذلك ؟ . . وهنا نقف وقفة قصيرة مع العلم الحديث لننظر ماذا قال هنا :

(فجعله غثاء أحوى) أى جعله بعد خضرته يابساً أسود ، وهل هناك نبات اذا جف صار يابسا أسود ؟ لا يوجد فيما نعلم نبات هكذا؟ اذن فكيف أخرج الله تبارك وتعالى المرعى ثم جعله يابساً أسود ؟ كيف ومتى ؟ . . ألا ينطبق هذا كل الانطباق على الفحم الحجرى الذى تكوّن معظمه في حقب الحياة القديمة حينما ظهر النبات غير المزهر والسرخسيات بكثرة عظيمة ثم تراكمت فوقها في بعض الجهات رواسب أخرى فتحولت الى فحم حجرى مع طول الزمن وارتفاع الضغط والحرارة ! . . نعم و هذا هو الغثاء الأحوى الذى تكلم عنه القرآن الكريم وعلله فأصاب وأوجز . قال وأصاب في وقت كانت فيه مثل هذه الحقائق غريبة على عقول البشر . قال هذا فسبق العلم بقرون عديدة . أفليس هذا اعجازا ؟ . . بلى والله إنه نعم الإعجاز (٢) .

ونعلم أن أوّل النبات كانت الأعشاب والمراعى وما من نبات إلاّ وهو صالح لخلق من خلق الله . فهى هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا . فالله خلق هذه الأرض وقدّر فيها أقواتها لكل حى يدب فوق ظهرها أو يختبىء في جوفها ، أو يطير في جوها .

والمرعى يخرج في أول أمره خضرا ، ثم يذوى فاذا هو غثاء ، أميل الى السواد فهو أحوى ، وهو في كل حالاته صالح لأمر من أمور هذه الحياة بتقدير الذى خلق فسوّى وقدّر فهدى . .

ثم يوقفنا التوجيه القرآني على أمسّ الأشياء الى الانسان ، وهو طعامه ، وطعام أنعامه، وما وراء ذلك من تدبير الله وتقديره له :

« فلينظر الإنسان الى طعامه . أنّا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا(٣) وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا (٤) . وفاكهة وأبا(٥) متاعاً لكم ولأنعامكم » (٦) . .

---

(١) تفسير جزء عم ص ٥٢ بتصرف . جاء في لسان العرب أن الغثاء هو اليابس والأحوى من الحوة وهى سواد الى الخضرة أو حمرة الى السواد وقد كثر في كلام العرب حتى سموا كل أسود أحوى .

(٢) القرآن والعلم د/ – أحمد محمود سليمان – ص ٦٦ – ٦٧ – دار العودة بيروت – الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

(٣) القضب : الرطب أو الثمار الفضة التى يتكرر قطف أشجارها أو العلف على أختلا ف الأقوال .

(٤) غلبا : كثيفة الشجر (٥) الأب : المرعى على أوجه الأقوال (٦) عبس : ٢٤ – ٣٢

جاء في الكشاف « والحبّ : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما . والقضب : الرطبة ، والمقضاب أرضه ، وسمى بمصدر قضبه اذا قطعه لأنه يقضب مرة بعد مرة (وحدائق غلبا) يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء فيزيد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها كما تقول حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا : أى عظاما غلاظا . والأب : المرعى لأنه يؤب : أى يؤم وينتجع ، والأب والام أخوان (١)

فالآيات السابقة بيان لقدرة الله وعظمته في الابانة عن منشأ النبات وتعدده ، والارتباط الوثيق بين الحيوان والنبات ، فالكائن الحى لا يتغذى الاّ من أصله الذى تكون منه ، ولذا أمر الانسان أن يتدبر قصة طعامه ، الذى هو ألصق شيء به . وسيجد أنه من الطين والماء .

ان الله صب الماء من السماء صبّا ، ثم شق الأرض بجذر النبات ، شقّه شقّا فأنبت فيها حبّا وعنبا وقضبا .

وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل انسان في كل بيئة ، وفي أى درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . والله الذى لا شريك له هو الذى صب الماء ، وهو الذى قدّر أن يكون الماء العامل الأول في خلق كل نبات ، ولنا عود لهذا الموضوع بعد قليل .

ثم تأتي المرحلة التالية لصبّ الماء ، وهى شقّ الأرض شقا بجذر النبات لتتكون الجذور الممتدة خلال التربة ، أو أن يشق النبت تربة الأرض شقا بقدرة الله الخالق ، وينمو على وجهها ، ويمتد في الهواء فوقها ، وربما شقت النبتة الصفراء الملتوية الهشة الأرض الصلبة الجافة ، أو الصخرة العاتية نافذة إلى أعلى مكوّنة الساق والأوراق .

اذن على الانسان أن ينظر الى طعامه الذى به قوامه ، كيف تفضل الله به عليه فصار في أشد الحاجة اليه ، وكيف حوّل الله له بعض عناصر الأرض طعاما هنيا في شكل جميل ولون جذاب ، وطعم مستساغ حلو المذاق .

وجعل الله هذا الأصل الواحد أزواجا وأشكالا من حيث هو مأكول كالقمح والذرة والفول ، وغيرها من البقول ، أو هو فاكهة لذيذة كالعنب والنخيل ، وغير هذا كثير مما يؤكل قضبا كالقثاء والتفاح ، وهذه الحدائق الفيح الملتفة الأغصان ، وهذه السهول الخضر . . كلها متاع للانسان والأنعام .

● ★ ●

والنبات انما ينشأ من تراب وماء ، والله هو الذى أوجد الماء ، وأنزله من السماء بنظام وقدر موزون ، وقد تكرر ذكر الماء كثيرا في القرآن الكريم في صدد الحياة والانبات قال تعالى :

---

(١) تفسير الزمخشرى ٤/٢٢٠ طبعة الحلبى ، القاهرة ١٩٦٦ م .

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . حتى إذا أقلّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربّه والذى خبث لا يخرج الاّ نكدا ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » (١) . .

— « وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا » (٢) . .

— « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » (٣) . .

— « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السّماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم انّ في ذلك لآيــات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٤) . .

— « وهو الذى أنزل من السّماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه . انّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٥) . .

— « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزّرع والزيتون والنّخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (٦) . .

— « وأنزلنا من السّماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وانا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدّهن وصبغ للاكلين » (٧) . .

— « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرّة ان الله لطيف خبير » (٨) . .

ان الله هو الذى يرسل الرياح مبشرات برحمته . والرياح تهبّ حاملة للسحاب وفق النواميس الكونية ويصرفها عمن يشاء من عباده ، فإذا أنزل الماء منها على بلد ميت أحياها بأمره جل جلاله وأخرج الله به من كل الثمرات رزقا لكم ، ومتاعا الى حين .

ودور الماء الظاهر في انبات كل شيء دور واضح يعلمه البدائي والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم . . ولكن دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة . فقد شارك الماء ابتداء — بتقدير الله — في جعل تربة الأرض السطحية صالحة للانبات (اذا صحت النظريات

---

(١) الأعراف : ٥٧ — ٥٨ (٢) الفرقان : ٤٨ — ٤٩ (٣) فاطر : ٩
(٤) طه : ٥٣ — ٥٥ (٥) الأنعام : ٩٩ (٦) النحل : ١٠ — ١١
(٧) المؤمنون : ١٨ — ٢٠ (٨) الحج : ٦٣

التى تفترض أن سطح الأرض كان في فترة ملتهبا ، ثم صلبـا لا توجد فيه التربة التى تنبت الزرع ، ثم يتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها الى تربة لينة)(١) ثم ظل الماء يشارك في اخصاب هذه التربة ، وذلك باسقاط « النتروجين » — الأزوت » من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع في الجو ، النتروجين الصالح للذوبان في الماء ويسقط مع المطر ، ليعيد الخصوبة الى الأرض . . وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية في صنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التى يخلو وجه الأرض من النبات لو نفدت من التربة ! (٢) .

والآيات الكريمة السابقة من سورة طه والأنعام والزمر والنحل والمؤمنون . . وغيرها تشير الى كثير من خصائص النبات فالآية الكريمة من سورة الأنعام توضح معنى علميا (وهو أن الماء ينبت البذور فتخرج أجنة النبات من دور الركود وتخصص أجزاء منه للأوراق في انتاج المادة الخضراء وهى اللازمة لتكوين المادة الغذائية داخل عروق النبات فتتكون البذور والثمار)(٣) .

والنبات كما بينا يبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة توضع في الأرض وتسقى بالماء ، ثم تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « ثم شققنا الأرض شقا » (٤) وهذا الدور من حياة النبات يمكن أن يسمى دور الانبات وفيه تنشق الأرض عن النبتة الصغيرة ذات الورقتين الخضراوين ، وفيه لا تأخذ البذرة أو النواة من خارج الأرض الا الماء والاكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فتستمد مما أودعه الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدّرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء . وعلى الجذير والورقتين يتوقف غذاء النبات بعد ذلك ، فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة في الأرض ، والوريقات الخضر تقوم بعمليتى التنفس والتمثيل الخضرى (٥) .

وتعرف هذه العملية (بالتمثيل الكربوني) . يدخل ثاني أكسيد الكربون من الجو الى النبات عن طريق الثغور ، فيقابل المادة الخضراء والماء ، وتتكون من الكربون مواد الغذاء بفعل الحرارة والضوء ، أما طريقة تكوين هذه المواد من غاز ثاني أكسيد الكربون ، فهى عملية كيماوية معقدة ، لم يقل العلم عنها الا أن وجود المادة الخضراء والماء والحرارة ، ينتج عنها تغييرات تنتهى بتكوين المواد الغذائية ، ولا يتم الا في الضوء . ولذا فهى تسمى أيضا « بالتمثيل الضوئي » . ويقرر العلم أن هذه العملية هى أصعب وأعجب عملية تقوم بها الحياة ولا يمكن لأى تركيبات أو أجهزة أن تقوم بمثل ما تقوم به ورقة خضراء في أى نبات (٦) .

---

(١) انظر العلم يدعو للايمان ص ٧٦ . (أ) كريسى موريسون : ترجمة محمود الفلكى ، النهضة المصرية بالقاهرة ط ٦ ، ١٩٧١ م

(٢) في ظلال القرآن ٣٢٤/٣ (٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ١٨٩ طبعة القاهرة ١٩٧٥م (٤) عبس : ٢٦

(٥) الاسلام في عصر العلم ص ٣٤٥٦ — ٣٥٧ بتصرف / محمد احمد الغمراوى ط ١ ، القاهرة ، دار الانسان ، ١٩٧٣ م .

(٦) الله والعلم الحديث ص ٤٧٥ عبد الرازق نوفل ، الناشرون العرب القاهرة ، ١٩٧١ .

والمادة الخضراء التى ورد ذكرها في الشرح الآنف الذكر هى ما أشارت إليه الآية الكريمة بكلمة « خَضِراً » واخراج هذا (الخَضِرُ) أى المادة الخضراء يأتي بعد اخراج النبات من الماء ، وإذا تابعنا عملية خلق النبات حسب تسلسلها في آية الأنعام — ٩٩ وجدناها موضحة بعوامل خلق ثلاثة ، وهى كما يأتي :

١ — عامل الخلق الأول لكل النبات هو الماء :
(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) . .

٢ — عامل الخلق الثاني : هو المادة الخضراء التى تشير إليها الآية بكلمة (خضرا) (فأخرجنا منه خضرا) .

٣ — عامل الخلق الثالث : وهو اخراج الحب والثمر المتباين والمختلف حجما وشكلا ، بين قمح وعنب ورمان وزيتون . . الخ قال تعالى :

« نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » (١) .

والحبّ المتراكب كالسنابل وأمثالها ، والقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير وفي النخلة هو العذق الذى يحمل الثمر ، ولفظه (قنوان) ووصفها (دانية) يشتركان في القاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . » وجنات من أعناب » . . « والزيتون والرمان » . . هذا النبات كله بفصائله وسلالاته — (مشتبها وغير متشابه) — أى (مشتبها في الخلق مختلفا في الطعم) (٢) أو (بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم) (٣) « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » . . انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ انظروا اليه في ازدهاره ، وازدهائه عند كمال نضجه . انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . لا يقول هنا ، كلوا من ثمره اذا أثمر ، ولكن يقول : « انظروا الى ثمره وينعه » ، لأن المجال هنا جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر في آيات الله ، وبدائع صنعته في مجال الحياة (٤) .

والآية الكريمة من سورة الزمر — (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه . . . الآية) — توجه الأنظار للتأمل والتدبر ، في ظاهرة تتكرر في أنحـاء الأرض ، حتى لتذهب بجدتها وما فيها من عجائب في كل خطوة من خطواتها . . فهذا الماء النازل من السماء . . ما هو وكيف نزل ؟ . . اننا نمر بهذه الخارقة سراعا لطول الألفة وطول التكرار . ان خلق الماء في ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتحاد ذرتي أيدروجين بذرة اكسوجين تحت ظروف معينة ، فان هذه المعرفة خليقة أن توقظ قلوبنا الى رؤية يد الله التى صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروجين ويوجد الاكسوجين وتوجد الظروف التى تسمح باتحادهما ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد ، ومن ثم وجود الحياة في هذه الأرض . . ولولا الماء لما وجدت

---

(١) الأنعام : ٩٩
(٢) تفسير الطبرى : ٥٧٨/١١ تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف .
(٣) تفسير الزمخشرى : ٤٠/٢ .
(٤) انظر منهج الفن الاسلامى محمد قطب ص ٢١٨ — دار القلم .

حياة . انها سلسلة من التدبير حتى نصـــل الى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير وكله مما صنعت يداه . . ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الأرض والكون وفق نواميس قدرها الله في هذا الكون ، ودبر حركتها ، ونتائجها ، فسمح بتكون الماء ونزوله(١).

ثم تجيء الخطوة التالية لانزال الماء :

« فسلكه ينابيع في الأرض » . .

سواء في ذلك الأنهار الجارية على سطح الأرض ، والأنهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية ، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيونا ، أو يتكشف آبارا . ويد الله تمسكه فلا يذهب في الأغوار البعيدة التى لا يظهر منها أبدا ! ! . .

« ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه » . .

والحياة النباتية التى تعقب نزول المطر وتنشأ عنه ، خارقة يقف أمامها جهد الإنسان حسيرا ، ورؤية النبتة الصغيرة وهى تشق حجاب الأرض عنها ، وتزيح أثقال الركام من فوقها ، وتتطلع الى الفضاء والنور ، والحرية ، وهى تصعد في الفضاء رويداً رويداً . . هذه الرؤية كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ، وأن تثير فيه الاحساس بالله الخالق المبدع الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والزرع المختلف الألوان — في البقعة الواحدة ، أو النبتة الواحدة ، أو الزهرة الواحدة — ان هو الا معرض لابداع القدرة ، يشعر الإنسان بالعجز المطلق عن الاتيان بشيء منه أصلا ! ! . .

وفي ضوء هذا يتبين لنا بعض أسرار تكرار القرآن الكريم لحديث الماء ونزوله ، وما يترتب عليه من أثر عميق في الحياة بما ينبت من الزروع والحدائق ، المختلفة الأنواع والأشكال (٢) .

● ★ ●

ومن مشاهد الأرض أننا نراها ساكنة لا حركة فيها ولا حياة ، فإذا نزل عليها الماء اهتزت وانتفخت وانبتت من كل زوج بهيج قال تعالى :

« وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (٣) . .

وقال أيضا : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير » (٤) . .

واهتزاز الأرض تحركها بالنبات ، وإحياؤها بعد موتها ، ومعنى ربت أى ارتفعت لما سكن فيها من الثرى ثم أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح والأشكال والمنافع (٥) .

---

(١) انظر في ظلال القرآن ١٣٥/٧ وما بعدها .

(٢) انظر في هذا البحث ص ٥

(٣) الحج : ٥

(٤) فصلت : ٣٩

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢٠٨/٣ و ١٠٢/٤ .

(والخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض اذا كانت قحطة لانبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى : « وترى الأرض هامدة » . . وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو هو الانتفاخ اذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه ، وهى قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة . وقرىء وربأت : أى ارتفعت لأنّ النبت إذا همّ أن يظهر ارتفعت له الأرض) (١) .

وهكذا وصف الله تعالى الأرض بأنها ميتة ، وأنه يحييها بالماء الذى يجعلها تهتز وتربو . أى تتحرك وتنمو ، وهذه الحركة العجيبة سجلها القرآن الكريم قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام ، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهى تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تحيا بما تنبت من كل زوج بهيج . وهل أبهج من الحياة وهى تتفتح بعد السكون ، وتنتفض بعد الهمود .

وهكذا نجد أن القرآن قد عبر عن الأرض قبل نزول الماء ، وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها (هامدة) ومرة بأنها (خاشعة) والتعبيران يوحيان بالسكون الذى ما يلبث أن يهتز ويتحرك اذا ابتلت الأرض بالماء ، وبذلك ترتسم لنا معالم الصورة ، ويبدو لنا ما خفى عن ادراكنا للحركة الدائبة تحت سطح الأرض ، فنعلم أن كل المراعى الخضر الزاهرة الوادعة في مظهرها ، انما تخفى تحتها حياة وحركة ونموا بما يمتد في باطن الأرض من جذور وبما ينبت فوقها من نبات يتغذى منها ويعلو ويثمر ، قال تعالى :

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » (٢) . .

وقال تعالى : « يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون»(٣)

فالماء حين يصيب الأرض ، يبعث فيها الخصب ، وتموج صفحتها بالحياة المنبثقة النامية . . ورؤية الزرع النامى ، وتفتح الزهر ، ونضج الثمر اليانع ، وتزين الأرض بمختلف الألوان مشاهد تلفت العين والقلب إلى القدرة المبدعة ففى كل لحظة يتحرك برعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج الى وجه الحياة ، وفي كل لحظة يجفّ أعواد و شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم أو حطام . ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والانبات ، ويوجد الغاز الذى ينطلق في الجو أو تتغذى به التربة ، وتستعد للاخصاب . وفي كل لحظة تدب الحياة في نبات أو حيوان ، ويتم التحول من خاصية الى أخرى(٤) . . وانها لمعجزة لا يدرى سرّها أحد ، ولا يملك صنعها الاّ خالق الأكوان ولذا حرص القرآن على توجيه القلب البشرى لهذا المشهد المتكرر ؛ : « انّ الله فالق الحبّ والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحيّ . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ . » (٥) . .

---

(١) سير الزمخشرى ٤٥٤/٣ .
(٢) يس : ٣٣ – ٣٥
(٣) الروم : ١٩
(٤) انظر في ظلال القرآن ٤٤٦/٦ وما بعدها .
(٥) الأنعام : ٩٥

فهذا اثبات قاطع أن الأرض الميته تخرج النبات الحىّ يتغذى وينمو ويثمر ويموت ، جاء في الكشاف : « يخرج الحى من الميت » : أى الحيوان والنامى من النطف والبيض والحبّ والنوى » ومخرج هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامى ، فان قلت : كيف قال مخرج الميت من الحىّ بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحىّ من الميت ؟ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس اخراج الحىّ من الميت لأن النامى في حكم الحيوان ، ألا ترى الى قوله – يحيي الأرض بعد موتها – « ذلكم الله » أى ذلكم المحيي والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية » (١) .

فالحبّ الساكن ، والنوى الهامد وهو يفلق باطن الأرض ليخرج منه نبات حىّ ، مشهد يتكرر في كل لحظة . . وفي الشجرة الصاعدة والنبتة النامية تعبير عن معجزة الحياة نشأة وحركة ، وعلى سرٍ مكنون لا يعلم حقيقته الا الله . . وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الأشياء وأشكالها ، وبعدما درست من خصائصها وأطوارها . . تقف أمام السرّ المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية في طريقها ، والمعجزة تقع في كل لحظة ! ! . .

ولعل في تنويع نسق التعبير بين (يخرج) و (مخرج) ايقاظا للحسّ حتى يلتفت للقدرة الباهرة وهو يعرض آيات الله في الكون .

● ★ ●

قال تعالى وهو أصدق القائلين : « وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون »(٢) . .

الآيات الكريمة هنا تطوف بالقلب البشرى في مجالات وآفاق متعددة ، وتعرض من مشاهد الكون : الأرض الممدودة ، وما فيها من رواسى ثابتة ، وأنهار جارية ، والليل اذ يغشاه النهار ، والجنات والزرع والنخيل في مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد .

وأول المشاهد المعروضة هذه الأرض المبسوطة على امتداد البصر ولا يهمّ ما يكون شكلها الكلى في حقيقته إذ أن مدّ الأرض وبسطها ليس دليلا على عدم كرويتها اذ هى مبسوطة ممدودة في نظرنا لنعيش عليها ، ويقابل مدّ الأرض ارساء الجبال مع تحركها ودورانها .

وعلى هذه الأرض معارض مختلفة ، تتفاوت فيها أنظار الناظرين : بين النظرة العابرة التى لا ترى الا الآفاق الفسيحة الممتدة ، والنظرة المتأملة التى تنفذ الى تدبر عظمة الخالق ، وجلال عمله ، وروعة حكمته ، مما يملأ القلب خشوعا ، وولاء ، وحمدا للخلاق العظيم . . رب العالمين . .

---

(١) تفسير الزمخشرى ٣ / ٧٢.

(٢) الرعـد : ٣ – ٤ .

وقوله (جعل فيها زوجين اثنين) أى : « خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين حين مدها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت ، وقيل أراد بالزوجين الأسود والأبيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة » (١) .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن المقصود بالزوج في مثل قوله تعالى : « وأنبتت من كل زوج بهيج » (٢) وقوله : « أولم يروا الى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » (٣) — الزوج هو النوع ، أى نوع بهيج أو كريم ، وعندما يكون الغرض من الزوج ، الذكر والأنثى يقول تعالى (زوجين) لأن الزوجين هما النوعان ، نوع الذكر ونوع الأنثى ، ومثله قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٤) .

وقد دل علم الحياة على أن الكائنات الحية تنقسم الى ذكر وأنثى سواء في الحيوان والنبات ، وقد يكون الذكر والأنثى في الزهرة الواحدة ، أو الشجرة الواحدة أو في شجيرات ويتم التلقيح أما بالريح أو الطير ، وسبحان الله الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وخلق الأزواج ظاهرة مطردة في الأحياء كلها ، النبات فيها كالانسان . ومثل ذلك غيرهما . قال تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون »(٥) .

فنعم الخالق العظيم الذى خلق الأزواج من كل شيء . . من أنفسنا كبشر ، ومن الحيوان والطير والنبات . . ومن الأشياء التى تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب ومن الذرات التى لا نراها بالعين المجردة . . وانها لوحدة تشى بوحدة اليد المبدعة ، التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، في هذه الأحياء التى لا يعلم علمها الا الله ، وقد أصبح معلوما أن الهواء مكون من التزاوج بين الاكسجين وأكسيد الكربون ، وأن الماء مكون من التزاوج من الهيدروجين والأكسجين . . وأن دم الإنسان مكون من التزاوج بين الكريات الحمر والكريات البيض . . وأن الذرة أصغر ما عرف من أجزاء المادة — مؤلفة من زوجين مختلفين من الأشعاع الكهربي ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! . . كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية ، تتألف من نجمين مرتبطين يشد كلاهما الآخر ، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة(٦) .

فالتزاوج بين كل شيء أمر نوّه عنه القرآن الكريم قبل أن تبرهن عنه القرائن العلمية الحديثة بقرون بعيدة .

وكثيرا ما يتساءل الإنسان عن السبب الذى من أجله خلق الله حشرات غريبة ، وعن فوائدها . . ألا أنه سيقف مشدوها كما وقف أحد العلماء عندما عرف دورهذه الحشرات في نقل بذور اللقاح لأتمام عملية التزاوج في النبات فأقر بأن هذا العمل من معجزات الله (٧) .

---

(١) تفسير الزمخشرى ٣٤٩/٢ (٢) الحج : ٥ (٣) الشعراء : ٧ (٤) الذاريات : ٤٩
(٥) يس : ٣٦ (٦) انظر : مع الله في السماء ص : ١٧٤ ، أحمد ذكى ، دار الهلال القاهرة .
(٧) انظر : الله والعلم الحديث : ص ٩٩

وقوله (وفي الأرض قطع متجاورات . .) أى (بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة الى سبخة ، وكريمة إلى زهيدة ، وصلبة الى رخوة وصالحة للزرع لا الشجر الى أخرى على عكسها ، مع انتظامها جميعا في جنس الأرضية ، وذلك دليل على قادر مزيد لأفعاله على وجه دون وجه وكذلك الزروع والكروم والتخيل النابتة في هذه القطع مختلفة الأجناس والأنواع وهى تسقى بماء واحد ، ونراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح ، متفاضلة فيها(١) .

فهذه المشاهد الأرضية معارض متعددة ، تثير في الإنسان رغبة التطلع اليها بحواسه جميعا . . برغم تأكيد النص على وجوب التطلع في ملكوت الله ، والتدبير فيما أبدع وصور ، ولن يخطىء العقل طريقه الى الله اذا هو وقف متجردا بين يدى تلك الآيات . . ففى الأرض قطع متجاورات ، ولكنها غير متماثلة . . منها الطيب الخصب ، ومنها السبخ النكد ، ومنها المقفر الجدب ، ومنها الصلد ، وكل واحد من هذه وتلك أنواع وصنوف وألوان ودرجات ، ومنها العامر والغامر ، ومنها المزروع الحىّ والمهمل الميت ومنها الريان والعطشان . ومنها ومنها ومنها . . وهى كلها في الأرض متجاورات . ولكنها ليست متساوية في الخصب أو الخواص . . ثم قال تعالى : « وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد . ونفضل بعضها على بعض في الأكل) . ولقد شاءت قدرة الله أن تفلح هذه القطع من الأرض وتزرع وتعمر بوساطة الإنسان ، حتى يتألف منها ثلاثة أنواع من النبات : الكرم المتسلق العنب وما على شاكلته ، والنخل السامق بأنواعه ، والزرع من بقول وحبوب وخضروات متشابهة وغير متشابهة ، حيث تكون كلها مجتمعة حدائق كالجنات بما فيها من نبات يسبح باسم الله العلى القدير . وذلك النخيل : صنوان وغير صنوان ، منه ما هو عود واحد ، ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد ، وكله (يسقى بماء واحد) والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم والأحجام ، والألوان ، والخواص الأخرى ، ومنها ما هو مختلف كل الاختلاف في نواح عديدة وصفات متعددة ، وهنا تتجلى عظمة الخالق في جعل حبة الحنظل اذا وضعت في جوف الأرض تطلب من معادنها ما ينمى مرارتها ، وجعل حبة البطيخ تأخذ من بين عناصر الأرض ما ينمى حلاوتها ، وكلتاهما من رتبة واحدة وهما تسقيان بماء واحد (٢) .

هذه الجولة في مشاهد الكون تعرض مشاهد عدة تشكّل لوحة فنية رائعة ، تصور أرضا مبسوطة ، وجبالا راسية ، وأنهارا جارية ، وأزواجا من الثمرات ، وقطعا من الأرض متجاورات ومتباينات ، ونخيلا صنوانا وغير صنوان ، وثمارا مختلفة الطعوم والزروع والنخيل والأعناب . . كلها توقظ القلب ، وتنبه العقل ، وتؤكد روعة التدبير . وقدرة الخالق سبحانه ، الذى أخرج كل نبت في هذه الأرض ،

---

(١) تفسير الزمخشرى : ٢)٣٤٩ .

(٢) انظر آيات الله في الآفاق ص ٧٣ وما بعدها .

وفي خلقه دقة واحكام وتقدير لا يزيد أو ينقص ، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه (موزون) ، وفيه دليل على التناسق في الخلق الدال على الحكمة الالهية البالغة ، والقدرة العجيبة ، التى تعين كل شيء بمقدار ، وتزن كل موجود بميزان ، بحيث تتحقق فيه المنفعة التى أرادها الله لعباده . قال تعالى :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين »(١) .

وقوله « موزون » وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار يقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان» (٢) ولذلك اتبعه بقوله : « وجعلنا لكم فيها معايش ، لأن ذلك يحسب بحسب الانتفاع بعينه .

وقال الراغب الأصفهاني : « وقيل بل ذلك اشارة الى كل ما أوجده الله تعالى ، وأنه خلقه باعتدال ، كما قال انا كل شيء خلقناه بقدر (٣) .

والحقيقة هى أننا نجد قرينة دالة على معنى التقدير بمقدار معلوم في كلمة « موزون » هذه القرينة نفهمها من سياق الآيات الكريمة بعد ذلك وهى قوله « وإن من شيء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم » (٤) . . فالآية ظاهرة الدلالة على أن ما يتفضل الله به إنما هو وليد الحكمة في الخلق والتقدير والاتزان ، فليس من شيء ينزل جزافا وليس من شيء يتم اعتباطا .

ولعلنا بعد هذه الجولة في دنيا النبات ومملكته ، نقف عاجزين عن الإحاطة بمشاهده المتعددة،ومروجه الخضر ، التى تأخذ بالقلوب والأبصار لجمالها . . انه عالم مترامى الأطراف ، غنى بشتى أنواع النبات والأشجار وفصائل النبات والأزهار ووافر الثمرات والغلات ، التى يتغذى عليها الملايين من ذرية آدم وحواء وما لا ينحصر من المخلوقات المتنوعة التى تعيش وتدب في الأرض أو تسبح في الفضاء أو تغوص في قاع الماء .

رأينا الحّب والنوى يحفظ الحياة داخل البذرة ، ثم ينقل هذه الحياة الى جذيرها وسويقها .

ورأينا في عملية الانبات تلك الشعب والشعيرات الهنية اللينة تخترق الأرض الصلبة وتشقّ طريقها الصعب الوعر باحثة عن غذائها وعامل نمائها ، فتعطى الثمر الكبير الحجم والوزن المتفاوت والثمر المختلف شكلا وملمسا ولونا ورائحة وطعما ومذاقا ، وكلها بديع التنسيق والتكوين ، وهى تسقى بماء واحد وتتغذى من تربة واحدة . . « وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون »(٥) .

ورأينا في النبت الموزون مع الاختلاف والتعدد دقة الخلق وأحكام التقدير » « والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » (٦) .

نعم لقد رأينا جملة النبات تتفاوت في تركيبها ، وقدراتها ، غير أننا قد رأينا فيها جميعا قدرة الخالق ، فسبحان من أوجد الوجود ونظمه ، وخلق كل شيء وألهمه ، وهدى كل حىّ وعلّمه ! . .

(١) الحجر : ١٩ – ٧٠
(٢) تفسير الزمخشرى ٣٨٩/٢ .
(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة وزن .
(٤) الحجر : ٢١ .
(٥) النمل : ٦٠
(٦) الحجر : ١٩